الباب العاشر

الكفاح فى سبيل الحرية

الفصل الأول

مرثون

يقول هيرودوت : « فى أثناء حكم دارا وخشيارشاى وأرتخشر لاقت بلاد اليونان من الأهوال مالم تلقه فى العشرين جيلا السابقة على هذا العهد[1] » وكان لابد أن يلقى أهلها جزاء نمائهم وتقدمهم . ذلك أن انتشارهم فى كل مكان لابد أن يؤدى عاجلا أو آجلا إلى قيام النزاع بينهم وبين إحدى الدول العظمى . وإذ كان اليونان يتخذون البحر مطية لهم ، فقد أنشأوا فيه طريقاً تجارياً يمتد من شاطئ أسپانيا الشرقى غرباً إلى أقصى ثغور البحر الأسود شرقاً . وأخذ الطريق المائى الأوربى — الذى يخترق بلاد اليونان وإيطاليا وصقلية — ينافس الطريق الشرقى البرى والبحرى — الذى يخترق الهند وفارس وفينيقية — ويفوقه فى الأهمية على مر الأيام ، ونشأ من هذه المنافسة نزاع شديد لم يخمد أواره قط كان لابد أن يؤدى إلى ما أدى إليه كل نزاع سابق فى تاريخ البشر ، ألا وهو الحرب السافرة التى لم تكن معارك لادى Lade ، ومرثون ، وپلاتية ، وهيميرا Hymera ، ومكالى Mycale ، ويوريمدون Eurymedon ، وغرانيقوس وإسوس ، وأربيلا ، وكانى ، وزاما إلا حادثات منها صغيرة ، وانتصر الأوربيون على الشرقيين فى هذا الصراع لأسباب عدة ، منها أن النقل البحرى أقل نفقة من النقل البرى ،

ومنها أن من القوانين التى تكاد تتحكم فى التاريخ أن الشمال الخشن ذا النزعة الحربية ، ينتصر دائماً على الجنوب اللين السهل مبدع الفنون .

فى عام ٥١٢ قبل الميلاد عبر دارا الأول ملك الفرس مضيق البسفور وغزا سكوذيا ، ثم زحف غرباً وفتح تراقية ومقدونية ، ولم يعد إلى عواصم ملكه إلا بعد أن وسع رقعة إمبراطوريته حتى شملت فارس ، وبلاد الأفغان ، وشمالى الهند ، والتركستان ، وأرض الجزيرة ، وشمالى بلاد العرب ، ومصر ، وقبرص ، وفلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ، وشرقى بحر إيجه وتراقية ؛ ومقدونية . وكانت نتيجة هذه الفتوح أن أعظم الإمبراطوريات التى شهدها العالم حتى ذلك الوقت قد وسعت رقعتها أكثر مما يجب عليها أن توسعها ، حتى ضمت إليها فاتحيها فى المستقبل وأيقظتهم من سباتهم ، ولم يبق من الأمم الكبرى فى خارج هذا النظام الشامل من نظم الحكم والتجارة إلا أمة واحدة هى أمة اليونان ، التى لم يكد دارا يسمع شيئاً عنها خارج أيونيا قبل عام ٥١٠ ق . م ؛ وقد سأل مرة عن « الأثينيين — من هم[٢] ؟ » . وحدث فى عام ٥٠٦ أن قامت ثورة فى أثينة انتهت بخلع الطاغية هيباس ؛ ففر إلى المرزبان الفارسى فى سرديس وتوسل إليه أن يعينه على استرداد سلطانه ، وعرض عليه إذا استرده أن يتولى حكم أتكا من قبل الفرس .

وكان ذلك إغراء قوياً زاده قوة تحرش مؤقت . ذلك أن المدن اليونانية التى ظلت خاضعة لسلطان الفرس نحو خمسين عاماً ثارت فجاءة على ولاتها من قبل الفرس ، وطردتهم منها وأعلنت استقلالها . وذهب أرستجراس الميليتى إلى اسپارطة يستمد منها العون ، ولكنه لم يفلح فى بغيته ، فجاء إلى أثينة ، وهى المدينة الأصلية التى نشأ منها كثير من المدن الأيونية ، وما زال يلح عليها حتى أقنعها بأن ترسل عمارة بحرية مؤلفة من عشرين سفينة لمساعدة الثوار . وكان الأيونيون فى هذه الأثناء يعملون بعنف وبغير نظام هما من خصائص اليونان

فى كل زمان ومكان ، فكانت كل مدينة ثائرة تجيش جيوشها ولكنها تستبقيها تحت قيادة مستقلة . وزحف الجيش الميليتى ، ولدى قيادته من الشجاعة أكثر مما لديه من الحكمة ، حتى وصل إلى سرديس ، وأحرق المدينة العظيمة ودكها دكا . ونظم الحالف الأيونى أسطولا متحداً ، ولكن سفن ساموس عقدت صلحاً سرياً منفرداً مع المرزبان الفارسى ، فلما أن التقت العمارة البحرية الفارسية بالعمارة الأيونيه عند لادى فى عام ٤٩٤ ، ودارت بينهما معركة من أشد المعارك البحرية فى التاريخ ، انسحبت سفن ساموس الخمسين دون أن تشترك فى القتال ، وحذت حذوها كثير من أقسام الأسطول الأيونى(٣) . وهُزم الأيونيون هزيمة منكرة ، ولم تفق الحضارة الأيونية بعدئذ إفاقة كاملة من هذه الكارثة المادية والروحية ، وحاصر الفرس ميليتس ، واستولوا عليها ، وقتلوا رجالها ، وسبوا نساءها وأطفالها ، وأعملوا فيها السلب والنهب ، حتى صارت منذ ذلك اليوم بلدة قليلة الشأن . وبسطوا سلطانهم مرة أخرى على أيونيا ، وغضب دارا لتدخل أثينة فى شئون ملكه ، فصمم على فتح بلاد اليونان ، وألفت أثينة الصغيرة نفسها ، جزاء لها على مساعدتها الكريمة لبنائها من المدن الأيونية ، وجهاً لوجه أمام إمبراطورية أكبر مائة مرة من أتكا .

و عام ٤٩١ خاض أسطول فارسى قوامه ستمائة سفينة بقيادة داتيس Datis عباب بحر إيجة من جزيرة ساموس ، ووقف فى طريقه ليخضع جزائر سكلديس ، ووصل إلى ساحل عوبية يحمل مائتى ألف محارب . واستسلمت عوبية بعد مقاومة قصيرة عبر الفرس بعدها الخليج الذى يفصلها عن أتكا ، وعسكر هؤلاء الجنود عند مرثون لأن هيباس قد نصحهم بأن فى وسعهم أن يستخدموا فى هذا السهل فرسانهم ، وهم من هذه الناحية يفوقون اليونان كثيراً(٤) .

واضطربت بلاد اليونان أشد الاضطراب لهذه الأنباء ، ذلك أن الجيوش الفارسية لم تكن قد غلبت قط قبل هذا الغزو ، ولم تكن أمة من الأمم قد

استطاعت أن تصد زحف جيوش الإمبراطورية . فهل فى مقدور أمة ضعيفة ، مشتتة ، لم تألف من قبل الاتحاد لغرض عام ، أن تقف فى وجه تيار الغزو الجارف ؟ وترددت دول اليونان الشمالية فى الوقوف فى وجه هذه الجيوش الجرارة ، واستعدت اسپارطة استعداداً يشوبه كثير من التردد ، وأجازت للخرافات أن تؤخر التعبئة العامة ؛ أما بلانية الصغيرة فلم تتوان عن العمل السريع وبعثت بقسم كبير من أهلها يستحثون السير إلى مرثون . وحرر ملتيادس العبيد فى أثينة وضمهم إلى الجيش مع الأحرار ، وزحف بهم إلى ميدان القتال من فوق الجبال . ولما التقى الأعداء كان عدد الجيش اليونانى حوالى مائة ألف مقاتل ، أما جيوش الفرس فكانت عدتها فى أغلب الظن حوالى مائة ألف[٥] . ولم يكن الفرس تعوزهم الشجاعة ، ولكنهم كانوا يألفون أن يحاربوا فرادى ، ولم يكونوا مدربين على أساليب اليونان فى الدفاع والهجوم الجماعيين بصفوفهم المتراصة . وجمع اليونان بين النظام والشجاعة . وقد نجوا من الهزيمة الماحقة بالمثل الذى ضربه لهم أرستيديس Aristides إذ نزل عن القيادة لملتيادس ، وإن كانوا قد ارتكبوا ذلك الخطأ الشنيع الدال على الحمق وهو توزيع القيادة العليا بين عشرة قواد يتولاها كل واحد يوماً[٦] . واستطاعت القوة اليونانية الصغيرة بفضل حنكة هذا الجندى القوى الخشن الطباع أن توقع بالجحافل الفارسية الجرارة هزيمة منكرة . ولم تكن هذه المعركة من معارك التاريخ الفاصلة فحسب ، بل كانت فوق ذلك من أعظم الانتصارات التى لا يصدقها العقل . وإذا جاز لنا أن نأخذ بأقوال اليونان عنها ، فإن الفرس قد خسروا فى مرثون ٦٫٤٠٠ من رجالهم ، ولم يخسر اليونان إلا ١٩٢ . ووصل الاسپارطيون إلى الميدان بعد انتهاء المعركة ، وندموا على تباطؤهم ، وأثنوا على الفائزين .

الفصل الثانى

أرستيديز وثمستكليز

إن سيرة ملتيادس وأرستيديز بعد معركة مرثون لتوضح ما فى أخلاق اليونان وما فى تاريخهم من مزيج عجيب يجمع بين النبل والقسوة ، والمثالية والانحطاط . ولنتحدث أولا عن ملتيادس فنقول إنه قد غره ثناء بلاد اليونان كلها عليه فطلب إلى الأثينيين أن يعدوا أسطولا من سبعين سفينة يتولى قيادته هو وحده لا ينازعه فى ذلك منازع . ولما أن أعدت السفن سار بها إلى پاروس وطلب إلى أهلها مائة وزنة (نحو ٦٠٠٠٠٠ ريال أمريكى) وإلا أفناهم عن آخرهم . ولكن الأثينيين استدعوه وفرضوا عليه غرامة قدرها خمسون وزنة ، ولما مات بعد استدعائه بقليل أدى الغرامة ابنه سيمون Cimon الذى صار فيما بعد منافس پركليز[٨] .

وعاش الرجل الذى تخلى لملتيادس عن مكانه فى مرثون ونجا من المزالق التى توجد عادة فى طريق الظافرين . ذلك أن أرستيديز كان فى حياته وأخلاقه اسپارطياً يعيش فى أثينة ؛ وقد استحق بخلقه الهادئ الرزين ، وبساطته ، وتواضعه ، وأمانته التى لا تنال منها الأحداث ، استحق بهذه الصفات لقب العادل ، ولما أن تليت على المسرح العبارة الآتية أثناء تمثيل إحدى مسرحيات إيسكلوس :

« فهو لا يتظاهر بالعدالة ولكن العدالة طبيعية فيه ، وهى هدفه فى أعماله ؛ ومن عقله تتفجر ينابيع الحكمة والفطنة » .

لما أن تليت هذه العبارة التفت المستمعون كلهم ناحية أرستيديز ، لأنهم رأوا فيه الأنموذج الحى لهذه الصفات[٩] . ولما أن استولى اليونان على معسكر الفرس فى مرثون ، ووجدوا فى خيامهم ثروة طائلة ، عهدوا إلى أرستيديز المحافظة

عليها « فلم يأخذ منها شيئاً لنفسه ، ولم يسمح لأحد بأن يغتال منها شيئاً[١٠] » ولما أن طلب إلى حلفاء أثينة بعد الحرب أن يسهموا فى أداء جزية سنوية إلى خزانة الحلف فى ديلوس ليستعان بها فى الدفاع عن بلاد اليونان عامة ، اختير أرستيديز ليقرر ما تؤديه كل مدينة ، ولم يعترض أحد على قراراته . لكن إعجاب الناس به كان رغم هذا كله أكثر من حبهم إياه . وكان صديقاً حميماً لكليسثنيز الذى وسع نطاق الدمقراطية إلى حد بعيد ، ولكنه كان يرى أنها ذهبت إلى أبعد حد مأمون ، وأنه إذا ما زيدت سلطة الجمعية إلى أكثر مما كان لها ، أدى ذلك إلى فساد الإدارة وإلى اضطراب النظام . وكان يندد بالفساد أينما وجده ، وخلق بذلك لنفسه كثيراً من الأعداء . واتخذ الحزب الدمقراطى الذى يرأسه ثمستكليز نظام نفى عدم المخلصين للحكومة ، وكان قد تقرر حديثاً ، للتخلص من أرستيديز ؛ وفى عام ٤٨٢ نفى الرجل الوحيد فى تاريخ أثينة كله الذى جمع بين الشهرة والأمانة ، وكان نفيه فى أوج مجده . والعالم كله يعرف القصة التى تقول — وقد تكون هى الأخرى خرافة لا ظل لها من الحقيقة — إن أرستيديز نقش اسمه على اللوحة التى يكتب عليها اسم من يراد نفيه (الأستراكون) حين طلب إليه ذلك رجل أمى لا يعرفه ولكنه لم يعد يطيق سماع لقب العادل يطلق عليه ، فحقد عليه لهذا السبب كما يحقد أوساط الناس عادة على العظماء . ولما أن عرف أرستيديز أن الجمعية قررت نفيه قال إنه يرجو ألا يأتى اليوم الذى تذكره[١١] فيه أثينة[*] .

ولا يسع المؤرخ إلا أن يعترف أن المتصرفين فى الشئون العامة فى أثينة كانوا يتصفون بما يتصف به رجال الحكم أحياناً من موت الضمير . لقد كان ثمستكليز

(*) ولعله كان يقول مع الشاعر العربى :

سيذكرنى قومى إذا جد جدهم ... وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

(المترجم)

شعلة من الذكاء والمقدرة لا يقل فى ذلك عن ألقيبادس الذى عاش فى عصر متأخر عنه . ويقول فيه توكيديدس[١٢] وهو المعروف دائماً باعتداله : « إنه خليق بأن نعجب به إعجاباً خارقاً للعادة منقطع النظير » . وقد أنقذ أثينة كما أنقذها ملتيادس ، ولكنه لم يستطع إنقاذ نفسه ؛ وكان فى مقدوره أن يقهر إمبراطورية عظيمة ، ولكنه لم يكن فى وسعه أن يقهر ما فى نفسه من شهوة السلطان ، « وكان يتلقى بمضض وعدم عناية » ، كما يقول أفلوطرخس ، ما يسدى إليه من النصح لتقويم المعوج من أخلاقه وسلوكه ، ولا يقبل أن يعلمه أحد شيئاً من الرقة والمجاملة للناس ؛ لكنه حتى بعد أن تقدمت به السن كان يعنى بكل ما يقال له إذا كان يهدف إلى إصلاح عقله ؛ أو يزيد من قدرته على تصريف شئون الدولة ، وهو واثق من قدرته الطبيعية فى هذه الأمور[١٣] » . وكان من سوء حظ أثينة أن ثمستكليز وأرستيديز قد أحبا معاً فتاة واحدة هى استسلوس الكيوسية Stesilaus of Coes ، وأن ما ولده هذا الحب من حقد كل منهما على الآخر لم يزُل بعد أن زال الجمال الذى أشعل النار فى قلبيهما[١٤] . بيد أن ثمستكليز كان هو الذى أعد العدة للنصر فى سلاميس وأحرز هذا النصر بما أوتى من همة وفراسة . وكانت موقعة سلاميس أهم الوقائع الحاسمة فى تاريخ اليونان كله . ذلك أنه قد أعد منذ عام ٤٩٣ مشروع إنشاء مرفأ جديد لأثينة فى بيريه ، وشرع فى إنشائه بالفعل ؛ وفى عام ٤٨٢ أقنع الأثينيين بأن ينزلوا عن نصيبهم فى مال كان سيوزع عليهم من محصول مناجم الفضة فى لوريوم Leurium ، وأن يخصصوا المال لإنشاء مائة سفينة حربية من ذوات الثلاثة الصفوف من المجاذيف . ولولم ينشئ الأثينيون هذه السفن لما استطاعوا مقاومة خشيارشاى .

الفصل الثالث

خشيارشاى أو أخشويرش(*)

توفى دارا الأول فى عام ٤٨٥ وخلفه خشيارشاى الأول . وكان الوالد والولد رجلين يمتازان بالمقدرة العالية والثقافة الرفيعة ، ولهذا يخطئ من يظن أن الحرب اليونانية الفارسية كانت نزاعاً بين الحضارة والهمجية . وحسبنا دليلا على هذا تلك الحادثة التى وقعت حين أرسل دارا رسله إلى أثينة واسپارطة قبل أن يغزو بلاد اليونان ، يطلب إليهما أن ترسلا إليه التراب والماء رمزاً لخضوعهما لسلطانه ، فما كان من المدينتين كلتيهما إلا أن قتلتا الرسل . وتوالت نذر الشؤم على اسپارطة فخشيت عاقبة فعلتها . وندمت على خرقها التقاليد الدولية المرعية ، وطلبت إلى أهلها أن يتقدم منهم اثنان يذهبان إلى فارس وأن يقبلا أى عقاب يفرضه عليهما الملك العظيم ليكفرا به عن غدر مواطنيهما . وتطوع اسپرثياس Sperthias ، وبوليس Bulis من أبناء الأسر الغنية القديمة فى المدينة ، للقيام بهذه المهمة ، وسارا إلى خيمة خشيارشاى وعرضا عليه أن يقتلهما ليكفرا عن مقتل رسله ، ويقول هيردوت إن خشيارشاى « أجابهما جواب الشهم الكريم وقال إنه لا يفعل ما فعله اللسدمونيون ، حين قتلوا رسله واعتدوا بعملهم هذا على القوانين التى يشترك الناس كلهم فى التقيد بها . وإذا كان قد لامهم على فعلهم هذا فإنه لا يفعل مثل ما فعلوه ولا يرتكب من الإثم ما ارتكبوه » .

وأخذ خشيارشاى يستعد لهجومه الثانى على اليونان استعداداً كاملا بطيئاً . فقضى أربع سنين يحشد الجند ويجمع العتاد والزاد من جميع الولايات الخاضعة لسلطانه ؛ ولما أن بدأ الزحف أخيراً فى عام ٤٨١ كان جيشه فى أغلب الظن

(*) أو زركسيز كما يسميه اليونان .

أكبر جيش فى التاريخ كله قبل هذا القرن الذى نعيش فيه . ويقدره هيرودوت تقديراً بعيداً عن الاعتـدال فيقول إنه كان مؤلفاً من ٢٫٦٤١٫٠٠٠ مقاتل ، ومثلهم من المهندسين والأرقاء ، والتجار ، ورجال التموين والعاهرات . ويقول — ولعله هو نفسه لم يكن مؤمنا بقوله — إن جيش خشيارشاى كان إذا ورد الماء ليشرب جفت أنهار برمتها[١٦] . وكان هذا الجيش بطبيعة الحال خليطاً من أمم مختلفة الأجناس والمشارب ، وكان تأليفه على هذا النحو شديد الخطورة عليه . كان فيه فرس ، وميديون ، وبابليون ، وأفغـان ، وهنود ، وبكتريون ، وسيجديون ، وساكيون ، وأشوريون ، وأرمن ، وكلشيون ، وسكوذيون ، وپيونيون ، وميسيون ، وپفلجونيون ، وفريجيون ، وتراقيون ، وتساليون ، ولكريون ، وبوئوتيون ، وإيوليون ، وأيونيون ، وليديون ، وكاريون ، وكليكيون ، وقيصريون ، وفينيقيون ، وسوريون ، وعرب ، ومصريون ، وأحباش ، وليبيون وأجناس أخرى كثيرة . وكان منهم المشاة ، والفرسان ، وراكبو العربات ، والفيلة ، ومعهم أسطول من سفن النقل والسفن الحربية يبلغ عددها حسب رواية هيرودوت ألفا ومائتى سفينة وسبع سفن . ولما قبض الفرس فى معسكرهم على جواسيس يونان ، وأمر القائد بقتلهم ، نقض خشيارشاى أمره وعفا عن الجواسيس ، وأمر أن يحرسوا أثناء مرورهم بين قواته ، ثم أطلق سراحهم معتقداً أنهم إذا نقلوا إلى أثينة واسپارطة مدى استعداده ، فإن ما بقى من بلاد اليونان سوف يستسلم له[١٧]

ووصل هذا الجيش العظيم إلى الهلسپنت (الدردنيل) فى عام ٤٨٠ وكان مهندسوه المصريون والفينيقيون قد أقاموا عليه جسراً يعد من أعظم أعمال القدماء الهندسية ، وأكثرها إثارة للإعجاب ، وإذاجاز لنامرة أخرى أن نصدق هيرودوت قلنا إن ٦٧٤ سفينة من ذوات الصفوف الثلاثة من المحاذيف ، أو من ذوات الخمسين مجذافاً ، قد صفت صفين فى عرض المضيق ، ووجهت كل سفينة عكس التيار ؛ وثبتت فى مكانها بمهلب ثقيل . ثم مد الصناع حبالا من الكتان

أو نبات البردى فوق كل صف من السفن من أحد الشاطئين إلى الشاطئ الذى يقابله ، وربطوا هذه الحبال من كل سفينة من السفن ، وشدوها إلى روافع على البر . وقطعت أشجار ونشرت ألواحاً وضعت فوق الحبال وبعكس اتجاهها وربطت بهذه الحبال كما ربط بعضها ببعض . وغطيت الألواح بالحسك ؛ ثم غطى الحسك بالتراب ، ثم عبد هذا كله حتى يكون شبيهاً بالطريق الممهد ، وأقيم حاجز على كلا الجانبين يبلغ من الارتفاع حدا يمنع الحيوانات من أن يدخلها الخوف إذا أبصرت البحر[٨] . ولكن كثيراً من الحيوانات والآدميين كان لا بد من ضربها بالسياط قبل أن تجرؤ على اجتيازه . واحتملها الجسر أحسن احتمال ، ولم تمض إلا سبع ليال وسبعة أيام حتى كان الجيش كله قد مر عليه بسلام . ورأى أحد الأهلين هذا المنظر العجيب فأيقن أن خشيارشاى هو زيوس بعينه ، وسأل كيف يكلف رب الآلهة والبشر نفسه عناء فتح بلاد اليونان الصغيرة ، وهو الذى يستطيع أن يدمر هذه الأمة المتعاظمة بصاعقة واحدة[١٩] .

وزحف الجيش سرا مجتازا تراقية ثم نزل إلى مقدونية وتساليا بينا كان الأسطول الفارسى يلازم الساحل يتجنب عواطف بحر إيجة بالسير جنوبا مجتازا قناة حفرها رجال مسخرون ، ثم قطع من برزخ جبل أثوس مسافة يبلغ طولها ميلا وربع ميل . ومن القصص المتواترة أنه كلما أكل الجيش وجبتين حل الخراب التام بالمدينة التى تطعمه ، وأنفقت ثاسوس أربعمائة وزنة من الفضة (أى نحو ثلاثين مليون ريال أمريكى) لإطعام جيش خشيارشاى يوماً واحداً[٢٠] . واستسلمت مدن اليونان الشمالية الممتدة إلى حدود أتكا إما خوفا من الغزاة وإما طمعاً فى الرشا الضخمة التى كانوا يوزعونها على الأعداء ، وانضمت جيوشها إلى جحافل خشيارشاى ، ولم تستعد للقتال من مدن الشمال إلا پلاتيا وثسپيا .

الفصل الرابع

سلاميس

كيف نستطيع أن نتصور فى هذه الأيام ما استولى على اليونان الجنوب من هول وفزع حينما اقترب منهم هذا السيل الجارف المتباين الألسنة الذى لا يبقى ولا يذر ؟ لقد بدا لهم أن مقاومته حمق وجنون ، لأن الدول التى ظلت موالية للقضية اليونانية لم يكن فى وسعها أن تحشد معشار قوة خشيارشاى ؛ وعملت أثينة واسپارطة للمرة الأولى معا وتعاوننا معاونة صادقة ، وأرسلتا الوفود مسرعة إلى كل مدينة فى البلوپونيز تتلمس العتاد والرجال ، وأجابتها معظم الدول إلى ما طلبت ؛ ولكن أرجوس رفضت الرجاء ورضيت بما أصابها من مذلة . وجهزت أثينة أسطولا اتجه إلى الشمال للقاء العمارة الفارسية الضخمة ، وأرسلت اسپارطة قوة صغيرة بقيادة الملك ليونداس لتعطل تقدم خشيارشاى عند ترموپيلى . والتقى الأسطولان عند أرتمزيوم Artisium بالقرب من ساحل عوبية الشمالى . ولما رأت قواد الأسطول اليونانى ضخامة الأسطول الفارسى فكروا فى الانسحاب ، ولكن العوبيين خشوا أن ينزل الفرس فى بلادهم ، فأرسلوا إلى ثمستكليز قائد القسم الأثينى رشوة قدرها ثلاثون وزنة (نحو ١٨٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) على شريطة أن يقنع قواد اليونان بقتال الأعداء . ونجح ثمستكليز فى إقناعهم بعد أن اقتسم المال معهم[٢١] . ثم هداه ما يمتاز به من دهاء إلى وسيلة أخرى ظن فيها فائدة ، فأرسل بعض البحارة لينقشوا على الصخور رسائل إلى اليونان المنضمين إلى الأسطول الفارسى يرجونهم فيها أن يفروا من هذا الأسطول ، فإن كبر عليهم هذا فلا أقل من أن يمتنعوا عن قتال أهلهم وبلادهم . وكان يأمل أن يتأثر الأيونيون بهذه الرسائل إذا رأوها ، وألا يجرؤ خشيارشاى إذا قرأها وأدرك معناها على استخدام

الهيلينيين فى المعركة . ودار القتال بين الأسطولين المتعادين طوال النهار ، فلما جن الليل وقف القتال قبل أن يعقد لواء النصر لأحد الفريقين ، وارتد اليونان إلى أرتميزيوم والفرس إلى أفيتى Aphetae . وإذا ما ذكرنا اختلاف القوتين فى عدد السفن رأينا أن اليونان كانوا على حق حين حسبوا نتيجة المعركة نصرا لهم على أعدائهم . ولما جاءتهم الأنباء بكارثة ترموبيلى أبحر الجزء الباقى من الأسطول اليونانى نحو الجنوب إلى سلاميس ليصد الغزاة عن أثينة .

وكان فى هذه الأثناء قد غلب على أمره عند « الأبواب الحارة » رغم ما أبداه من المقاومة الشديدة التى تعد أروع مقاومة فى التاريخ كله . ولم ينتصر عليه أعداؤه بفضل شجاعتهم ، بل انتصروا عليه بخيانة اليونان أنفسهم . ذلك أن بعض اليونان من أهل تراكيس Trachis لم يكتفوا بأن يدلوا خشيارشاى على طريق ملتو طويل فوق الجبال ، بل فعلوا ما هو أدهى من ذلك وأمر ، إذ قادوا الجيش الفارسى من هذا الطريق ليهاجموا الاسپارطيين من الخلف . وقتل فى المعركة التى نشبت وقتئذ ليونداس والثلثمائة الكبار الذين كانوا معه إلا رجلين ؛ ونقول الكبار لأنه لم يختر معه إلا من كان لهم أبناء حتى لا يكون موتهم سببا فى انقراض أية أسرة اسپارطية . أما الرجلان اللذان لم يقتلا فقد سقط أحدهما فى معركة پلاتية ، وشنق الثانى نفسه اعتقادا منه أن نجاته تجلله العار[٢٢] . ويؤكد المؤرخون اليونان أن الفرس خسروا فى المعركة عشرين ألفا ، وأن خسارة اليونان لم تزد على ثلثمائة[٢٣] . وكتب على قبر أولئك الأبطال تلك القبرية الذائعة الصيت : « اذهب أيها الغريب ونبئ اللسدمونيين أنا نحيا هنا إطاعة لشرائعهم[٢٤] » .

ولما عرف الأثينيون أنه لم يبق أمام الفرس ما يصدهم عن أثينة أعلنوا فى المدينة أن من واجب كل أثينى أن يعمل على نجاة أسرته بخير وسيلة يراها . فمنهم من فر إلى إيجينا ، ومنهم من فر إلى سلاميس ، ومنهم من خرج إلى تروزين Troezen ،

وانضم بعض الرجال إلى بحارة الأسطول العائد من أرتمزيوم . ويصور لنا أفلوطرخس[٣٥] صورة رائعة مؤثرة للحيوانات المستأنسة فى المدينة وهى تسير خلف أصحابها إلى شاطئ البحر ، حتى إذا ما امتلات السفن بالرجال ولم يبق فيها مكان للحيوانات ملأت الجو بأصواتها . وكان من بينها كلب يملكه أكسانثيوس Xanthippus والد پركليز ، قفز إلى البحر وأخذ يسبح إلى جانب السفينة حتى إذا ما وصل إلى سلاميس مات من فرط الإعياء[٣٦] . وفى وسعنا أن ندرك ما كان يسود تلك الأيام من اهتياج وانفعال ، حتى نذكر أن رجلا من الأثينيين وقف فى الجمعية الوطنية يشير بالاستسلام ، فما كان من مواطنيه إلا أن قتلوه فى التوّ والساعة ، وأن جماعة من النساء ذهبن إلى بيته ورجمن زوجته وأطفاله بالحجارة حتى يهلكوا[٣٧] . ولما أقبل خشيارشاى على المدينة ألفاها خاوية على عروشها أو تكاد ، فأعمل فيها السلب والنهب وأشعل فيها النار

وبعد قليل دخل الأسطول الفارسى المؤلف من اثنتى عشرة سفينة خليج سلاميس ، واستعدت للقائه ثلثمائة سفينة يونانية من ذات الصفوف الثلاثة من المجذفين ، وكانت لا تزال ألويتها معقودة لقواد مختلفين ، وكانت كثرة هؤلاء القواد تعارض فى المخاطرة بالاشتباك مع الأسطول الفارسى فى معركة فاصلة . وأراد ثمستكليز أن يضطر اليونان إلى القتال اضطراراً ، فلجأ إلى حيلة لو أنها انتهت بفوز الفرس لكان جزاؤه الموت لا محالة . ذلك أنه أرسل إلى خشيارشاى عبداً يثق به يقول له إن اليونان يعتزمون الفرار فى أثناء الليل ، وإن الفرس لا يستطيعون منع هذا الفرار إلا إذا أحاطوا بالأسطول اليونانى ؛ وعمل خشيارشاى بالنصيحة . ووجد اليونان فى صباح اليوم الثانى أن المسالك كلها قد سدت فى وجوههم ، فلم يروا بداً من القتال . وجلس خشيارشاى فى أبهة وجلال عند سفح جبل إيجليوس Aegaleus على شاطئ أتكا المقابل لخليج سلاميس يرقب سير القتال ، ويدون أسماء من يبدون من رجاله شجاعة ممتازة . وانتهت

الواقعة بفوز اليونان بفضل براعتهم فى أساليب الكر والفر ، وفى ركوب البحار ، وبسبب ما أحدثه فى صفوفهم من الخلل واضطراب اختلاف اللغات والعقول ، وكثرة ما لديهم من السفن التى عاقتهم عن سرعة الحركة . ويقول ديودور إن الغزاة خسروا مائتى سفينة مقابل أربعين خسرها المدافعون ، ولكننا لا نعرف ما يقوله الفرس أنفسهم عن النتيجة . ولم يقتل من اليونان إلا عدد قليل حتى من رجال السفن التى خسروها ؛ فقد كانوا كلهم بارعين فى السباحة ، ولذلك خاضوا الماء حتى وصلوا إلى البر حينما غرقت سفائنهم[٢٨] . وفرت المراكب الباقية من الأسطول الفارسى إلى مضيق الهلسپنت (الدردنيل) ، وأرسل الداهية ثمستكليز عبده مرة أخرى إلى خشيارشاى ليقول له إنه قد أقنع اليونان بعدم اقتفاء أثر الأسطول الفارسى . وترك خشيارشاى ثلثمائة ألف من رجاله بقيادة مردنيوس ، وعاد مع بقية الجيش ذليلا كسير القلب إلى سرديس ، فوصلها بعد أن مات فى الطريق جزء كبير من قوته بالأوبئة والزخار .

وفى العام الذى انتصر فيه اليونان فى سلاميس ، نشب القتال بين يونان صقلية والقرطاجنيين فى هيميرا Himera — وقد يكون ذلك فى نفس اليوم الذى دارت فيه رحى القتال فى سلاميس (٢٣ سبتمبر سنة ٤٨٠ ق . م) إذا صدقنا ما يقوله اليونان أنفسهم . ولسنا نعرف هل كان فينيقيو أفريقية يعملون بالاتفاق مع من كانوا يؤيدون منهم خشيارشاى ومن أمدوا سفنه بكثير من الرجال ؛ وربما كان من المصادفات المحضة أن يجد اليونان أنفسهم يهاجمهم أعداؤهم من الشرق ومن الغرب فى وقت واحد[٢٩] . وتقول الرواية المتواترة إن هملكار قائد العمارة القرطاجنية وصل إلى پنورموس Panormus على رأس ثلاثة آلاف سفينة وثلثمائة جندى ، ومنها سارة لمحاصرة هيميرا ؛ وهناك قابله جيلون Gelon السرقوسى ومعه خمسة وخمسون ألف مقاتل . ووقف هملكار بعيداً عن مكان المعركة كعادة قواد الفينيقيين ، وأخذ يحرق القرابين للآلهة ورحى الحرب دائرة ،

ولما تبين أنه مهزوم لا محالة ، ألقى بنفسه فى النار . وأقيم له قبر فى تلك البقعة نفسها ، وفيها قتّل حفيده هملكون Himilcon بعد سبعين عاما من ذلك الوقت ثلاثة آلاف يونانى انتقاماً منهم لجنده[٣٠] .

وبعد عام واحد (أغسطس سنة ٤٧٩) تم تحرير بلاد اليونان على أثر معركتين إحداهما بحرية والأخرى برية حدثتا فى وقت واحد تقريباً . ذلك أن جيش مردنيوس — وكان يعيش مطمئناً من خيرات البلاد — كان قد ضرب خيامه قرب پلاتيه فى سهول بوئيه . وهناك اشتبكت معه قوة يونانية قوامها ١١٠٫٠٠٠ رجل بقيادة پونياس ملك اسپارطة ، بعد أن ظلت أسبوعين فى انتظار فأل طيب يبشر بالنصر . ودارت بينهما معركة كانت أعظم المعارك البرية فى هذه الحرب . ولم يكن الجنود الأجانب فى جيش الفرس متحمسين للقتال ، وما كادوا يرون الفرقة الفارسة التى تلقت الضربة الأولى من ضربات المهاجمين تتزلزل أقدامها ، حتى ولوا الأدبار ، وانتصر اليونان على الفرس انتصاراً مؤزراً لم يخسروا فيه (حسب أقوال مؤرخيهم) سوى ١٥٩ رجلا ، بينما كان عـــدد القتلى من الجيش الفارسى ٢٦٠٫٠٠٠[*] . وفى اليوم نفسه — كما يؤكد اليونان — التقت عمارة بحرية يونانية بقسم من الأسطول الفارسى أمام شاطئ ميكالى وسط الجزائر الأيونية كلها وملتقى مسالكها ، ونشبت بين الأسطولين معركة تحطم فيها الأسطول الفارسى ، وتحررت المدن الأيونية من نير الفرس ، واستعاد اليونان سيطرتهم على الهلسپنت والبسفور ، كما استعادوا هذه السيطرة من طروادة قبل ذلك الوقت بسبعمائة عام .

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذه الأرقام التى يذكرها هيرودوت إنما أملتها عليه فورة من فورات الخيال الوطنى . وحاول أفلوطرخس أن يكون نزيهاً فى إيراده الحوادث فرفع خسارة اليونان على ١٣٦٠ ، ونزل ديودور الصقلى — وهو الرجل الكريم على الدوام فيما يذكر من الأرقام — بخسارة الفرس إلى ١٠٠٫٠٠٠[٣٢] . ولكن أفلوطرخس وديودور نفسهما كانا من اليونان .

لقد كانت الحرب اليونانية الفارسية أهم حوادث الصراع فى تاريخ أوربا ، ولولاها لما قامت لأوربا قائمة . فهى التى أتاحت للحضارة الأوربية الفرصة التى أمكنتها من أن تثبت قواعد حياتها الاقتصادية لا تبهظ كاهلها جزية أو ضرائب أجنبية ، وأن تنمى نظمها السياسية ، محررة من سيطرة ملوك الشرق . وبفضلها شقت بلاد اليونان لنفسها الطريق لأولى التجارب العظيمة فى الحرية ، وحفظت العقل اليونانى ثلثمائة عام كاملة من تصوف الشرق الموهن ومذاهب الباطنية ، وضمنت للمغامرات اليونانية حرية البحار . ونهض الأسطول الأثينى أو جزؤه الذى بقى بعد معركة سلاميس ففتح جميع مرافئ البحر المتوسط للتجارة اليونانية ؛ وهذا التوسع التجارى الذى أصبح بهذه الطريقة ميسراً مأموناً ، أمد أثينة بالثروة التى أمكنتها من أن تتفرغ لنشاطها الثقافى من عهد پركليز . يضاف إلى هذا أن انتصار هيلاس الصغيرة على جيوش الفرس الجرارة قد بعث العزة فى نفس أهلها وسما بروحهم المعنوية ، فأحسوا بأن الداعى يدعوهم للقيام بجلائل الأعمال اعترافاً منهم بالنعمة التى أنعم عليهم بها . وهكذا دخلت اليونان بعد مئات السنين من الاستعداد والتضحية فى عصرها الذهبى المجيد .

(انتهى الجزء الأول)